زاد الأئمة والخطباء رقم (٨٢)

الدليل الإرشادي لخطبة الجمعة

التسامح.. ركيزة بناء وصمام أمان

١٧ جمادى الآخرة ١٤٤٨ هـ – ٢٧ نوفمبر ٢٠٢٦م

الهدف المراد توصيله: إبراز قيمة التسامح باعتباره ركيزة أساسية في بناء المجتمعات المتماسكة المستقرة الآمنة، وبيان أثره في نشر المحبة، وجمع القلوب، وترسيخ ثقافة العفو وقبول الاختلاف.

لمتابعة المزيد من خطبة الجمعة: https://awkafonline.gov.eg/friday-sermon

لمتابعة المنصة الرسمية لوزارة الأوقاف: https://awkafonline.gov.eg/

التسامح.. ركيزة بناء وصمام أمان

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه واتبع هداه، أما بعد:

فإنَّ من أبرز ما يكشف عن عافية المجتمعات وقوتها قدرتَها على استيعاب الاختلاف، واحتواء الخلاف، والمحافظة على روابط المودة والتعاون بين أفرادها؛ فليس المجتمع المتماسك هو الذي تتطابق فيه الآراء، وتتفق فيه الطبائع، وتخلو حياة أفراده من الأخطاء والعثرات، وإنما هو المجتمع الذي يعرف أبناؤه كيف يختلفون دون أن يتباغضوا، وكيف يتعاتبون دون أن يتقاطعوا، وكيف يحفظون للإنسان قدره وكرامته وإن خالفهم في رأي أو أساء إليهم في موقف.

والمتأمل في واقع المجتمعات المعاصرة يلحظ أن كثيرًا من صور التصدع الاجتماعي لا تنشأ بالضرورة عن خلافات جوهرية أو مصالح متعارضة، وإنما تبدأ بكلمة لم يُحسن صاحبها اختيارها، أو موقف أُسيء فهمه، أو هفوة لم تجد من يتجاوز عنها، ثم تتسع دوائر الخصومة بفعل سوء الظن، وتناقل الكلام، والتمسك بالرأي، والرغبة في الانتصار للنفس، حتى تتحول المسائل الصغيرة إلى عداوات ممتدة، وتصبح القطيعة والتنافر سمةً في علاقات الأفراد والجماعات.

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية بمنظومة أخلاقية متكاملة تعالج هذه الآفات من جذورها، وترد العلاقات الإنسانية إلى أصولها القائمة على الرحمة والعدل والإحسان، وجعلت السماحة والعفو والصفح والحلم والرفق من الأخلاق التي لا تستقيم حياة الناس إلا بها.

والتسامح الذي يدعو إليه الإسلام أساس في استقرار الأسرة ومن ثم المجتمع، فهو قوة نفسية وأخلاقية تحمل صاحبها على ضبط انفعالاته، والإنصاف مع مخالفيه، والتجاوز عن زلات غيره متى كان التجاوز سبيلًا للإصلاح، والتمسك بالعدل دون أن تدفعه الخصومة إلى الظلم؛ إنه انتقال بالإنسان من أسر الأنا والانتصار للنفس إلى رحابة الإحسان ومراعاة مصالح الجماعة.

السماحة من أعظم خصائص الشريعة الإسلامية ومقاصدها

المتأمل في أحكام الإسلام وتوجيهاته يدرك أن السماحة من أبرز سماتها، ووجه من وجوه يسرها واعتدالها، فقد جاءت لتخرج الإنسان من ضيق التعصب والتشدد، إلى سعة الرحمة والاعتدال، ومن المشاحة في الحقوق إلى الفضل والإحسان، ومن الانتصار للنفس إلى مجاهدة الهوى وطلب مرضاة الله.

وقد أجاد العلامة الطاهر بن عاشور في بيان حقيقة السماحة، فقال: "السماحة: هي سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادة، وقد اعتبروا

السماحة أكمل وصف لاطمئنان النفس، وأعون على قبول الهدي والإرشاد، وجعلوها من أكبر صفات الإسلام؛ لوقوعها طرفًا بين الإفراط والتفريط، ونعَتوها بالتيسير المعتدل الذي شهد له قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]" [مقاصد الشريعة الإسلامية].

وهذا تعريف بالغ الدلالة؛ لأنه لا يحصر السماحة في العفو عن الذنب أو التجاوز عن الإساءة، بل يجعلها خُلُقًا في المعاملة، يظهر حين يتوقع الناس المشاحّة والمغالبة، فيختار صاحب السماحة التيسير والرفق والاعتدال.

ومن هنا جاء التوجيه النبوي الجامع عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اسمَحْ يُسمَحْ لَك» [رواه أحمد].

قال المناوي في شرحه: «أي: عامل الخلق الذين هم عيال الله وعبيده بالمسامحة والمساهلة، يعاملك سيدهم بمثله في الدنيا والآخرة»، ثم بيّن أن هذا من الإحسان المأمور به في القرآن، وأنه حث على المساهلة في المعاملة وحسن الانقياد، وأن الإنسان إذا لم يجد السماحة في طبعه فعليه أن يتخلق بها؛ رجاء أن يعامله الله بالعفو والمسامحة» [فيض القدير].

والمعنى الذي يرشد إليه الحديث عميق؛ فالمسلم لا يتعامل مع الناس بمنطق استيفاء كل حق إلى أقصى حد ممكن، ولا يجعل من كل خلاف معركة لإثبات الذات، وإنما يفسح للفضل مجالًا، ويعلم أن ما يقدمه للخلق من

إحسان وتيسير يرجو أن يجده عند الله أضعافًا مضاعفة.

وقد عبّر النبي ﷺ عن هذه الروح في وصف رسالته بقوله: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ» [رواه الطبراني].

فالحنيفية تدل على استقامة التوحيد والإقبال على الله، والسماحة تدل على الاعتدال واليسر وحسن المعاملة، وليس معنى ذلك إسقاط التكاليف أو التهاون في الثوابت، وإنما معناه أن الشريعة لا تقصد إلى العنت والمشقة، ولا تدعو إلى الغلو والتشدد، بل تجمع بين استقامة الاعتقاد وسلامة السلوك وحسن معاملة الخلق.

الإسلام يؤسس للتسامح ببناء الإنسان القادر على احتمال الاختلاف

لا يمكن أن يقوم مجتمع متسامح ما لم يُبنَ الإنسان المتسامح أولًا؛ لأن المجتمع في حقيقته ليس إلا مجموع النفوس والعلاقات والمواقف التي يصنعها أفراده، فإذا تربى الإنسان على الأثرة والتعصب، وسرعة الغضب، وحب الانتصار للنفس، انعكست هذه الصفات على المجتمع، وإذا تهذبت نفسه على الحلم والإنصاف والعفو، انعكست آثار ذلك على علاقاته ومؤسساته.

ولذلك اعتنى الإسلام بتربية النفس على جملة من الأخلاق التي تشكل الأساس النفسي للتسامح، ومن أبرزها:

١- **كظم الغيظ وضبط النفس:** قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقد بيَّن ابن كثير أن كظم الغيظ هو "حبس النفس عن إمضاء الغضب، وأن العفو عن الناس هو التجاوز عنهم عند المقدرة، ثم يرتقي الإنسان من ذلك إلى الإحسان الذي يحبه الله" [تفسير ابن كثير].

وقد جعل النبي ﷺ معيار القوة الحقيقية في القدرة على ضبط النفس، فقال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [متفق عليه].

وبيَّن ابن حجر أن الحديث "ينقل مفهوم القوة من الغلبة البدنية إلى القدرة على قهر النفس وضبط انفعالها؛ لأن من ملك زمام نفسه استطاع أن يمنعها من الظلم والعدوان" [فتح الباري].

٢- **لين الجانب والبعد عن الغلظة:** قال الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد قررت الآية حقيقة اجتماعية لا تتخلف، وهي أن الغلظة تنفر الناس، وأن القسوة تباعد بين القلوب، وأن النفوس لا تجتمع على قائد أو مربٍّ أو

صاحب رسالة إذا وجدت منه الفظاظة والجفاء.

يقول البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾: «أي: سيئ الخلق، جافيًا في القول، ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه لا تتأثر بشيء، تعاملهم بالعنف والجفاء، ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ أي: تفرقوا تفرقًا قبيحًا لا اجتماع معه، ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: ففات المقصود من البعثة» [نظم الدرر في تناسب الآيات والسور].

وقد جمع الله تعالى في بقية الآية بين العفو والاستغفار والمشاورة، وهي ثلاث وسائل عظيمة في ترميم العلاقات؛ فالعفو يمحو أثر الإساءة، والاستغفار يفتح باب الرحمة، والمشاورة تعيد الثقة وتمنح الآخرين شعورًا بالتقدير والمشاركة.

٣- حسن الخلق والألفة بالناس: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ» [رواه الطبراني].

ومعنى «الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا»: أنهم لينون، سهلون، يتسع جانبهم لمن يخالطهم، فلا يجد الناس منهم نفورًا ولا تكبرًا ولا تضييقًا.

ويؤكد هذا المعنى ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ مَأْلَفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ» [رواه أحمد].

والمؤمن الذي يألف ويؤلف لا يكون أسير الأهواء، ولا يجعل الاختلاف

سببًا للقطيعة؛ فهو قريب من الناس، حسن المعاشرة، سهل الجانب، لا يصر على الخصومة، ولا يتعمد إحراج الآخرين، ولا يضيق صدره بتفاوت الطبائع.

وقد نبه الغزالي في إحياء علوم الدين إلى أن حسن الخلق لا يتحقق بمجرد ترك الأذى، بل يحتاج إلى الصبر على ما يصدر عن الناس، ومعالجة الغضب والحقد، حتى لا تتحول المواقف العابرة إلى عداوات مستقرة [إحياء علوم الدين].

ومن هذا الباب قول أهل التزكية الذي نقله القشيري: «علامة حسن الخلق كف الأذى واحتمال المؤن» [الرسالة القشيرية].

الدعوة النبوية إلى إشاعة السلام والمودة والتكافل

حين قدم النبي ﷺ المدينة بدأ – بجوار بناء المؤسسات – بغرس القيم التي تجعل الناس قادرين على التعايش والتعاون والتآلف؛ فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»** [رواه الترمذي].

وفي بعض روايات الحديث: **«وصِلُوا الْأَرْحَامَ»** [رواه أحمد].

وليس من المصادفة أن تكون هذه أولى الكلمات التي أُعلنت في المجتمع

المدني؛ فقد جمعت بين ثلاثة أصول كبرى من أصول البناء الاجتماعي:

- **إفشاء السلام:** وهو إعلان المودة والأمان، وإزالة الحواجز النفسية بين الناس.
- **إطعام الطعام:** وهو تجسيد التكافل والتراحم، وإشعار الغني بمسؤوليته تجاه المحتاج.
- **صلة الأرحام وقيام الليل:** وهما يجمعان بين إصلاح العلاقات الإنسانية وتقوية الصلة بالله.

وقد أشار الإمام النووي في شرحه لأحاديث إفشاء السلام إلى أن السلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وأن إشاعته تعين على إزالة التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين [شرح النووي على صحيح مسلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»** [رواه مسلم].

فجعل النبي ﷺ المحبة متصلة بكمال الإيمان، وجعل لإفشاء السلام أثرًا مباشرًا في إشاعتها؛ لأن السلام يفتح باب التعارف، ويزيل الوحشة، ويهذب النفس على التواضع، ويعوّد الإنسان أن يبدأ غيره بالتحية الطيبة دون انتظار مقابل.

التسامح مع المسيء ومقابلة الأذى بالصبر والإحسان

من أرقى صور التسامح أن يحسن الإنسان إلى من أساء إليه، وأن يحتفظ بأخلاقه حين يفقد الآخرون أخلاقهم، وألا يسمح للإساءة أن تحوله إلى صورة ممن أساء إليه، وهذه منزلة لا يبلغها الإنسان بمجرد المعرفة النظرية، وإنما تحتاج إلى مجاهدة للنفس، وقوة في الإيمان، وثقة بوعد الله.

وقد قرر القرآن الكريم هذا المنهج في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وقد فسر الطبري الدفع بالتي هي أحسن بدفع إساءة المسيء بالحلم، وجهل الجاهل بالصبر، والمكروه بالعفو [جامع البيان].

وبيَّن الرازي أن مقابلة الإساءة بالإحسان قد تؤثر في نفس المسيء، فتحمله على مراجعة نفسه، ويكون الإحسان سببًا في انطفاء العداوة وتحولها إلى مودة [مفاتيح الغيب].

وليس أبلغ في بيان هذا المعنى من موقف النبي ﷺ مع الطفيل بن عمرو الدوسي؛ فقد أسلم الطفيل، ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فأبَوا وعصَوا، حتى عاد إلى النبي ﷺ وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ، عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ» [متفق عليه].

وهذا من أعظم دروس التسامح؛ فالإنسان الذي يحمل رسالة الإصلاح لا يتمنى هلاك المخطئ، وإنما يرجو هدايته، ولا يكتفي بالانتصار لنفسه، بل يسعى إلى إنقاذ غيره من الخطأ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال ﷺ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تَسُفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ» [رواه مسلم].

ومعنى «تَسُفُّهُمُ الْمَلَّ» أي: كأنك تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم والخزي بسبب إحسانك المستمر إليهم مع إساءتهم إليك.

قال الإمام النووي: "ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه، وقيل: معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم؛ لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم» [شرح النووي على صحيح مسلم].

إن المسلم ينطلق في إحسانه من مراقبة الله، لا من انتظار المقابل من الناس، ولذلك لا يقطع المعروف لمجرد أن الآخرين لم يحسنوا إليه.

وقد تجلت هذه الروح في موقف النبي ﷺ حين أوذي في الطائف، وعُرض

عليه أن يطبق ملك الجبال على أهلها، فقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [متفق عليه].

فهو ﷺ لم ينظر إلى أذى الساعة، بل إلى هداية المستقبل، ولم يجعل الألم الشخصي يحول بينه وبين الرحمة بالخلق.

التسامح في المعاملات المالية ومكارم التجارة

من المجالات التي تتجلى فيها السماحة بصورة عملية واضحة المعاملات المالية؛ لأنها أكثر المجالات تعرضًا للمشاحة والمغالبة، ولأن النفس قد تطمع في استيفاء الحقوق إلى أقصى حدودها، ولو كان ذلك على حساب التيسير على الآخرين.

وقد جاء الإسلام ليجعل المعاملة المالية قائمة على العدل والأمانة من جهة، وعلى السماحة والإحسان من جهة أخرى؛ فلا غش ولا استغلال، ولا بخس للحقوق، ولا تعسير على الناس، ولا استغلال لحاجتهم أو ضعفهم، ومن ذلك:

١. **السماحة في البيع والشراء والمطالبة بالحقوق،** فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى» [رواه البخاري].

قال ابن بطال: "فيه الحض على السماحة، وحسن المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة، والرقة في البيع، وذلك سبب إلى

وجود البركة فيه؛ لأن النبي عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم في الدنيا والآخرة" [شرح صحيح البخاري].

ومن هذا الباب ما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أَنَّهُ اشْتَرَى أَرْضًا مِنْ رَجُلٍ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ فِي قَبْضِ الثَّمَنِ، فَلَقِيَهُ عُثْمَانُ فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ تَأَخُّرِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ النَّاسَ لَامُوهُ؛ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ غُبِنَ فِي الْبَيْعِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: «أَوَذَلِكَ يَمْنَعُكَ؟ اخْتَرْ بَيْنَ أَرْضِكَ وَمَالِكَ»، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: **«أَدْخَلَ اللهُ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا»** [رواه أحمد].

٢. **التيسير على المدين المعسر من أعظم وجوه التسامح،** قال تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨٠].

ويقرر المفسرون أن الآية أصل في وجوب إنظار المعسر وعدم مطالبته بما يعجز عن أدائه، وأن التصدق عليه بالتنازل عن الدين أفضل وأعظم أجرًا [الجامع لأحكام القرآن].

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ فِي رَجُلٍ كَانَ يَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ بِالسَّمَاحَةِ وَالتَّيْسِيرِ: **«أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا**

مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي» [رواه مسلم].

وفي رواية عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَنَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَلٌ ظَاهِرٌ مِنَ الْخَيْرِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسِرًا، فَيَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ» [رواه مسلم].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا كَانَ مَدِينًا لَهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ، ثُمَّ وَجَدَهُ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ مُعْسِرٌ، فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: آللهُ؟ قَالَ: آللهُ، فَقَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ» [رواه مسلم].

وقد بيَّن النووي أن التنفيس عن المعسر يكون بتأخير مطالبته بالدين، والوضع عنه يكون بإسقاط بعض الدين أو كله، وفي الحديث فضل إنظار المعسر أو التخفيف عنه [شرح النووي على صحيح مسلم].

٣. الإحسان التجاري يتجاوز العدل إلى الفضل

لم يكتف الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين بالدعوة إلى تجنب الظلم والغش، بل قرر أن التاجر المتدين لا ينبغي أن يقتصر على العدل، وإنما يترقى إلى الإحسان، فقال: "فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم، ويدع أبواب الإحسان" [إحياء علوم الدين].

ثم ذكر من صور الإحسان التيسير على الفقراء في البيع والشراء، وإمهالهم

عند العسر، وعدم التشديد عليهم في المطالبة، ونقل عن بعض صالحي السلف أنهم كانوا يتركون تسجيل ديون الضعفاء أصلًا، ويقولون للمحتاج: خذ ما تريد، فإن يسر لك فاقض، وإلا فأنت في حل وسعة.

التسامح مع غير المسلمين وأسس التعايش الإنساني

قرر الإسلام قواعد عامة في التعامل مع الإنسان، أساسها كرامته الآدمية، والعدل معه، والبر بمن سالم، والوفاء بالعهد، وصيانة النفس والمال ودور العبادة، فالإسلام يفرق بين الاختلاف في الاعتقاد وبين الظلم والعدوان؛ فاختلاف الدين لا يبيح الاعتداء، ولا يسقط حقوق الإنسان في العدل والكرامة وحسن المعاملة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجاء في التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية: "بعد أن ذكر الله تعالى تلك الآداب السامية التي حفلت بها هذه السورة، ختمها بلون من الأدب العالي، وهو تعليم عباده أن لا كرم ولا شرف عند الله إلا بالتقوى، كيفما كانت الأحساب والأنساب، حتى لا يتعالى بعضهم على بعض بغير حق، فكل الناس من آدم وحواء، فلا وجه للتعالي بالأحساب والأنساب؛ ليظل الناس إخوة متواضعين متحابين".

وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويبين ابن عاشور أن الآية أذنَت ببر غير المسلمين الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم، والإحسان إليهم والعدل في معاملتهم [التحرير والتنوير].

ومن تطبيقات ذلك ما جاء في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ» [متفق عليه].

قال بدر الدين العيني: إن الصلة للمشرك جائزة؛ للقرابة والحرمة والذمام، وأن النبي ﷺ أمر أسماء بصلة أمها لأجل الرحم [شرح سنن أبي داود].

وعن مجاهد، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَأَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَأَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ» [رواه الترمذي].

وعن أنس رضي الله عنه "أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَأَسْلَمَ..." [رواه البخاري].

ومن أظهر الأدلة على حرمة الاعتداء على غير المسلمين المعاهدين قول النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» [رواه البخاري].

وقال ﷺ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه أبو داود].

التسامح في الأسرة والزواج؛ أساس استقرار البيوت

الأسرة هي المجال الأخص الذي تظهر فيه حقيقة الأخلاق؛ لأن طول المعاشرة يكشف الطبائع، وتكرار التعامل يُظهر مواضع الاختلاف، ولا يمكن أن تستقر البيوت إذا كان كل طرف يطالب الآخر بالكمال، أو يحاسب على كل تقصير، أو يجعل من الخلاف العارض سببًا للخصومة والقطيعة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» [رواه مسلم].

قال الإمام النووي: " أي ينبغي أن لا يبغضها؛ لأنه إن وجد فيها خلقًا يكرهه وجد فيها خلقًا مرضيًّا، بأن تكون شرسة الخلق لكنها دينة أو جميلة أو عفيفة أو رفيقة به أو نحو ذلك" [شرح النووي على صحيح مسلم].

وهذا الحديث يؤسس لأدب عظيم في الحياة الزوجية؛ إذ يعلم الإنسان ألا يحصر نظره في موطن نقص، ولا يجعل عيبًا واحدًا يمحو كل المحاسن، وإنما ينظر إلى الصورة الكاملة، ويوازن بين الإيجابيات والسلبيات، فكم من بيت

كاد أن ينهدم بسبب تضخيم الهفوات، واستحضار العيوب، وإهمال المحاسن!، وكم من خلاف أمكن احتواؤه حين تذكر أحد الزوجين ما في الآخر من فضائل ومحامد.

التسامح في الحوار وإدارة الاختلاف

من أخطر ما يهدد المجتمعات أن يتحول اختلاف الأفكار والآراء إلى خصومة شخصية، وأن يصبح الحوار ميدانًا لإثبات الغلبة لا وسيلة للوصول إلى الحق.

وقد راعى الإسلام طبيعة الاختلاف الإنساني، ودعا إلى الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة، ونهى عن المراء والجدل الذي لا يقصد به الوصول إلى الحقيقة، وإنما يراد به الانتصار للنفس وإحراج المخالف، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ» [رواه أبو داود].

ثمار التسامح في الدنيا والآخرة

- **تحقيق السلم المجتمعي ومنع الانقسام**، فحين يسود التسامح في المجتمع،

يتعلم أفراده احتواء الخلاف، واحترام الاختلاف، وعدم تحويل الخصومات الفردية إلى صراعات جماعية؛ فتقوى روابط الأخوة، وتتسع مساحات التعاون، وتتراجع أسباب التفكك.

- **نشر المحبة والألفة بين الناس،** قال رسول الله ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» [رواه الترمذي].

وكلما زادت الرحمة في المجتمع، زادت الألفة، وتراجعت القسوة، وشعر الناس أن بينهم روابط تتجاوز المصلحة المادية.

- **زيادة الثقة والتعاون واستقرار المعاملات،** فالمجتمع الذي يشيع فيه التيسير في المعاملات المالية، والصدق في البيع والشراء، والرفق في المطالبة بالحقوق، يكون أكثر استقرارًا وقدرة على التعاون.
- **العزة والرفعة في الدنيا والآخرة،** قال رسول الله ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**» [رواه مسلم].

وقد شرح القاضي عياض أن العفو يزيد صاحبه عزًّا في قلوب الناس، كما قد يكون سببًا لعزه ورفعة درجته في الآخرة [إكمال المعلم بفوائد مسلم].

- **النجاة من كرب يوم القيامة،** فعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**» [رواه مسلم].

- **مغفرة الذنوب والفوز برحمة الله،** قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

فمن عفا عن الناس ابتغاء وجه الله، ورجا أن يعامله الله بعفوه ورحمته، كان العفو بابًا من أبواب القرب من الله، ومن أسباب الفوز برضوانه.

غياب التسامح وأثره في تفكك المجتمع

إذا كان التسامح يشيع المودة والثقة والتعاون، فإن غيابه يفتح أبوابًا واسعة للعداوة والقطيعة والتنازع. وما أكثر المجتمعات التي لا تعاني من قلة الإمكانات بقدر ما تعاني من ضعف الروابط الإنسانية، وانتشار الخصومة، وسوء الظن، والتعصب للرأي، والرغبة المستمرة في الانتقام.

وقد حذر النبي ﷺ من ذلك بقوله: **«لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»** [متفق عليه].

قال النووي في شرحه: «أي تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة، ومعاشرتهم في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك، مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال» [شرح النووي على صحيح مسلم].

ومن أهم آثار غياب التسامح: شيوع الحقد والغل، وانتشار الانتقام وتبادل الإساءة، وتفكك الأسرة، وضعف الثقة والتعاون، وانتشار التعصب

والانقسام، وانتهاك الكرامة الإنسانية، وإهدار طاقات المجتمع، ومن أخطر ما يترتب على غياب التسامح أن يعتاد الأبناء مشاهد الخصومة والقطيعة، فينشؤون على أن الاختلاف لا يُحَل بالحوار، وأن الخطأ لا يُعالَج بالتقويم، وإنما بالانتقام والإهانة، وهكذا تتحول الخصومة من سلوك عارض إلى ثقافة تتوارثها الأجيال.

واجب الفرد في بناء ثقافة التسامح ونشرها

١. **مجاهدة النفس عند الغضب:** فلا يتسرع في الرد، ولا يتخذ قراراته في لحظات الانفعال، ويتذكر أن القوة الحقيقية في ملك النفس.

٢. **التماس الأعذار وإحسان الظن:** فلا يحمل كلام الآخرين على أسوأ المحامل، ولا يتسرع في اتهام النيات، ويتثبت قبل الحكم.

٣. **المبادرة بالاعتذار وقبول الاعتذار:** فلا يمنعه الكبر من الاعتراف بخطئه، ولا يمنعه الغضب من قبول اعتذار صادق يفتح باب الإصلاح.

٤. **كف الأذى عن الناس:** فيحفظ لسانه عن السخرية والغيبة والتشهير، ويده عن الاعتداء، وقلمه وحسابه الإلكتروني عن إيذاء الآخرين.

٥. **العفو عن الهفوات الشخصية:** فلا يحاسب الناس على كل تقصير، ولا يجعل من الأخطاء العابرة سببًا لقطع العلاقات.

٦. **المبادرة إلى الإصلاح:** فلا يكون مجرد متفرج على الخصومات، بل يسعى إلى جمع القلوب وإزالة أسباب الشحناء، ويكون عنصرًا في إطفاء النزاعات

لا في تأجيجها.

٧. **الإنصاف عند الاختلاف:** فيعترف بصواب المخالف، ولا يخلط بين نقد الرأي والانتقاص من صاحبه، ولا يحمل الخلاف الفكري على العداوة الشخصية.

٨. **السماحة في المعاملات المالية:** فيكون سمحًا في البيع والشراء والمطالبة بالحقوق، ويتجنب استغلال حاجة المحتاج أو التضييق على المدين المعسر.

٩. **حسن معاملة المخالف في الدين:** فيلتزم العدل والبر وحسن الجوار والوفاء بالعهد، ولا يجعل الاختلاف الديني مسوغًا للظلم أو الإساءة.

١٠. **نشر التسامح في الأسرة ومواقع التواصل:** فيربي أبناءه على احترام الآخرين وقبول الاعتذار، ويتجنب تحويل الخلافات الخاصة إلى حملات تشهير أو إساءة على المنصات الرقمية.

١١. **عدم مقابلة الإساءة بمثلها في كل الأحوال:** بل يتعلم أن المعاملة بالمثل ليست دائمًا أعلى المراتب، وأن الإحسان قد يغير القلوب ويوقف امتداد الخصومة.

١٢. **التخلق بالسماحة ولو لم تكن من الطباع:** فقد أشار المناوي إلى أن من لم يجد السماحة في طبعه فليتخلق بها؛ لأن الأخلاق الفاضلة تُكتسب بالمجاهدة والتدريب، حتى تصبح سجية راسخة [فيض القدير، شرح

حديث «اسمَحْ يُسمَحْ لَك»].

ضوابط التسامح؛ العفو الذي يحفظ الحقوق ولا يقر الظلم

من المهم أن نقرر أن التسامح الذي دعا إليه الإسلام ليس ضعفًا، ولا استسلامًا للعدوان، ولا تنازلًا عن الحق في كل الأحوال؛ فالشريعة التي أمرت بالعفو هي نفسها التي أمرت بالعدل، وحرمت الظلم، وأوجبت حماية الحقوق.

ومن أهم الضوابط: ألا يكون العفو سببًا في استمرار الظلم أو تشجيع المعتدي على التمادي، وألا يتنازل الإنسان عن حقوق الآخرين التي لا يملك إسقاطها، وألا يكون التسامح مدخلًا لإهدار حقوق الضعفاء أو تضييع العدالة، وأن يفرق الإنسان بين حقه الشخصي الذي يجوز له العفو عنه، وبين الحق العام الذي لا يملك التفريط فيه، وألا يخلط بين التسامح مع الأشخاص والتنازل عن الثوابت الدينية والأخلاقية، وأن يكون الإصلاح وتحقيق المصلحة معيارًا مهمًّا في اختيار العفو أو المطالبة بالحق.

ومن أبلغ ما يوضح هذا التوازن حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» [رواه مسلم].

وقد رسم الإسلام لهذا الخلق منهجًا متكاملًا؛ فبدأ بتزكية النفوس من

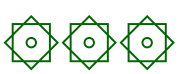
الحقد والكراهية، ودعا إلى كظم الغيظ والعفو والصفح، ورغَّب في الرفق والسماحة، وجعل الإحسان إلى المسيء من مكارم الأخلاق، ثم وسَّع دائرة هذه الفضيلة لتشمل الأسرة والجوار والمعاملات المالية، والتعامل مع غير المسلمين، وإدارة الاختلاف والحوار.

وقد تجسدت هذه المعاني في حياة النبي ﷺ؛ فرأيناه يعفو عند المقدرة، ويحتمل الأذى، ويدعو للمسيئين بالهداية، ويرفق بالخادم، ويحسن إلى المخالف، وييسر على المحتاج، ويحفظ الحقوق، ويجمع بين الرحمة والعدل.

ومن هنا فإن بناء مجتمع متسامح لا يتحقق إلا بتربية أبنائه على احترام الإنسان، وحسن إدارة الخلاف، والإنصاف عند الخصومة، والعفو عند المقدرة، والإحسان عند الاستطاعة.

إننا نحتاج إلى مجتمع لا يُشهر بأخطائه، ولا يقصي أبناءه بسبب هفواتهم، ولا يجعل الاختلاف ذريعة للتباغض، وإنما يفتح أبواب الإصلاح، ويمنح المخطئ فرصة للعودة، ويحفظ للمظلوم حقه وكرامته.

نحتاج إلى أن يصبح التسامح خلقًا في البيوت، وسلوكًا في الأسواق، وثقافة في المؤسسات، وأدبًا في الحوار، ومنهجًا في التعامل مع المخالف، ووعيًا يحكم تفاعلاتنا في الحياة الرقمية.



مراجع للاستزادة:

- الموسوعة في سماحة الإسلام، لمحمد الصادق عرجون.
- التسامح.
- كيف تُبنى المجتمعات بالتسامح؟ رحلة في عقول علماء الاجتماع.
- الأبعاد النفسية لوثيقة المدينة.

مجموعة مقالات على منصة وزارة الأوقاف المصرية.